التسامح الديني في عهد الدولة المغولية

د. أبوالوفا محمود *

Islam is a religion of peace and well-being and presents the true concept of Monotheism; therein we observe betterment and auspiciousness for whole mankind. Prophet Muhammad (PBUH) is the only messenger of Allah Almighty who was not commissioned to one nation but for whole mankind, and he brought such a message that covers all the aspects of human life and that was the message of prosperity and oneness of mankind. As all the human beings belong to one origin so Islam demands that amongst them there should be the ambience of cooperation, fraternity, justice, equality and respect for others rights.
But the foes of Islam, in every period, have been propagating that Islam is a religion of extremism and terrorism, and the only source of its promulgation has been through force and might. In this current era, Muslims around the world are being called as cruel and terrorist, and under the pretence of this evil propaganda they are trying to execute their ulterior and detestable motives and manipulating an incessant barbaric attitude against Muslim.

يتضح من خلال التأمل في تاريخ شبه القارة الهندية أن حياة قاطنيها الحضارية وعاداتهم وتقاليدهم ، منذ أجيال عديدة ، كانت وما زالت خفية عن أنظار العالم . والسبب الرئيسي لذلك هو تخلفهم الفكري وقلّة وعيهم العلمي ، وانعزالهم عن العالم الخارجي . وعندما ظهر الإسلام وانتشرت تعاليمه في مختلف الأقطار استمدت شبه القارة الهندية نصيبها من هذا النور .

وصل الإسلام إلى جنوب الهند عن طريق التجار العرب الذين تمكنوا من فتح قلوب سكانها بشكل سلمي ، وذلك من خلال أخلاقهم الإسلامية ومعاملتهم الحسنة قبل قدوم محمد بن القاسم عام 712م الذي بدوره فتح إقليم السند . ومن ثمّ بثّ نور الإسلام في جمع شبه القارة الهندية دون قتال . لعب الصوفية والتجار بعدها دوراً مهماً في ترويج الإسلام هناك . ثم استمرّ الفاتحون المسلمون بعد ذلك في الكفاح والنضال في سبيل نشر الإسلام ، وتطهير المجتمع الهندي من الممارسات الاجتماعية الخاطئة . وقد كان من أقوى هؤلاء الحكام المسلمين السلطان ظهير الدين بابر الذي هزم جيش

*الأستاذ المساعد بمركز الشيخ زايد الإسلامي بجامعة بنجاب ، لاهور

إبراهيم لودهي في حرب "باني بت " الأولى ، ووضع أساس الدولة المغولية عام 1526م .

يعود نسل ظهير الدين بابر إلى أصول تركية من ناحية والده ومن أم مغولية . ويسمّى حكام الدولة المغولية في الهند بالمغول خطأً ، حيث أن أصلهم يعود إلى جذور تركية . والحقيقة أن بابر كان يكره نهج المغول في حياتهم الاجتماعية .(1)

من هم المغول ؟

المغول أو التتار شعب من العرق الأصفر ، عاشوا في الهضبة الآسيوية الشاسعة التي تمتد من أطراف الصين إلى أواسط آسيا ، وكانوا يتنقلون من مكان إلى مكان وراء الكلأ ليرعوا ماشيتهم . وقد اشتهر المغول بأنهم قوم محاربون أشدّاء ، وكانوا يعاملون أعداءهم بقسوة هائلة .

أما المغول فقد بدأوا باكتساح البلاد الإسلامية وإنزال الدمار فيها مع بداية الحملة الصليبية الرابعة . ففي عام 1218م اجتاحت جحافلهم المخرّبة بقيادة جنكيز خان (تيموجن) بلاد خوارزم ، وأزالت السلطنة الخوارزمية الإسلامية . (2) وكانت السلطنة الخوارزمية في زمنه دولة إسلامية متسعة تبسط نفوذها على التركستان وفارس وشمال الهند . استطاع جنكيز خان أن يجعل من الكتل المغولية وقبائلها دولة مغولية واحدة ، واتخذ لها عاصمة في مدينة قراقرم . واستولى على بكين عاصمة مملكة الصين عام 1219م . وفي الفترة ما بين 1219-1221 م استولى المغول على بلاد التركستان وخرّبوا مراكز الحضارة الإسلامية هناك مثل بخارى وسمرفند وطاشقند . وقد هدأت هذه الغارة المخربة بوفاة جنكيز خان (1227م) بعض الوقت بسبب خلاف وقع بين أبنائه على وراثة العرش . ولم يلبث المغول أن استأنفوا هجومهم على العالم الإسلامي حين تولى حكم الدولة المغولية منكو خان حفيد جنكيز خان : فقد أوفد هذا السلطان المغولي أخاه هلاكو خان إلى غرب آسيا لفتح إيران والشام ومصر وبلاد الروم والأرمن ، وأوصاه بالمحافظة على تقاليد جنكيز خان وقوانينه . وكانت زوجة هولاكو وأمه مسيحيتين ، كما كان وزيره كتبغا مسيحياً ، وهؤلاء كلهم

ملأوا بلاط هلاكو بالمسيحين . وهذا ما يفسر لنا عطفه على المسيحين وشدة كراهيته بالذات للمسلمين والخلافة العباسية .

دخل هلاكو بغداد سنة 656 هـــ / 1258 م ، فدمّرها تدميراً ودام القتل والنهب والحرق نحو أربعين يوماً . وكان لسقوط بغداد والخلافة العباسية دوي هائل مخيف في مختلف أنحاء العالم الإسلامي . ولكن الإسلام عاد فانتصر ، لأن الملك غازان أسلم وحسن إسلامه ، وبذلك انقضى خطر المغول عن الإسلام .

دولة إسلامية في القارة الهندية :

يعود الفضل في قيام دولة إسلامية بالمعنى الصحيح في الهند إلى السلطان محمد الغوري . وقد تواصل الحكم الإسلامي من بعده على يد سلاطين دولة المماليك والخلجيين والتغالقة واللودهيين ، وكانت عاصمتهم جميعا في دهلي . أما الدولة المغولية فتعود نشأتها إلى السلطان الشاب ظهير الدين بابر ، والذي تولّى العرش وهو في الثانية عشرة من عمره .

رغم أن ظهير الدين بابر لم تسنح له الفرصة أن يمكث في الهند طويلاً ، وأن يحكم البلاد بارتياح إلا أنه أدرك في فترة وجيزة (1526-1530م) أن استقرار الحكم في الهند مطلب لا يمكن حصوله دون مراعاة مشاعر الهندوس ، واحترام شعائرهم الدينية. يحتلّ السلطان بابر المكانة المميّزة بين السلاطين المغول لكونه المؤسس الأول للدولة المغولية ولامتيازه بالجرأة والبسالة في قتال الأعداء ، و لم تكن العزّة والهيبة التي تمتع بها بقية حكام الدولة سوى ثمرة جهود هذا المؤسس .

فسدت الأمور بعد وفاة ظهير الدين بابر، وتمزّقت الدولة واقتصرت السلطة لابنه نصير الدين همايون على دهلي ، وهو أكبر أبنائه . استمرّ حكمه من 1530م إلى 1556م . وهو الذي امتاز بشغف التعلّم وحبّ الكتب والاطلاع ، وكان مولعاً بالبحوث العلمية والدينية . وكان يودّ أن يحضر عنده أتباع الأديان المختلفة ويشتركوا في مباحثات علمية ودينية ، وأن يتعرّفوا على معتقدات الآخرين . وكانت ظروف الدولة جيدة نسبياً حينما تولّى الحكم . لقد ترك بابر وصيته لابنه همايون حيث كتب فيه :

"أطال الله بقاءك ، لقد كتبت هذه الوصية لأجل استحكام الدولة وتقوية أساسها . يا بنيّ ! إنما يسكن دولة الهند أناس من مذاهب وأديان مختلفة والحمد لله الذي عهد إلي بحكم هذه البلاد . لذا يجدر بك أن تطهّر قلبك من كل تعصب ديني . وعليك أن تحكم بالعدل مع كل طائفة بما يتوافق مع أفكارهم وتصوراتهم الدينية ، كما ينبغي لك أن تتجنّب التضحية بالبقر ، إذ أنّ هذه وصفة ناجعة لحكم قلوب أهل الهند . وعليك أن لا تهدم معبداً وصومعة من معابد أهل الهند من صوامعهم . واحكم بالعدل ، وتغاض دائماً عن خلافات الشيعة والسنّة ، إذ أنها تضعف الإسلام".(3)

وقد بذل نصير الدين همايون جهوداً كبيرة للقضاء على العصبيّة ، وتقليل المسافة فيما بين الأديان المختلفة ، فحذا حذو أبيه في تقريب الناس ، وتثبيط مواقفهم المبنية على الطائفية . من أجل ذلك نفّذ أوامر أبيه ما ذكره في وصيّته المذكورة آنفاً.(4)

ثم تولى الحكم السلطان جلال الدين أكبر الذي يعدّ رجلاً ذا هيبة وسلطة في البلاد . وقد ولد بقرية "أمر كوت" بصحراء السند عام 1542م ، في حين فرّ أبوه همايون من وجه شير شاه الأفغاني فطارده من مكان إلى مكان . وعند ما توفي همايون كان جلال الدين محمد أكبر في الثالثة عشر من عمره ، فتولى الحكم في صغره ، واستمرّ حكمه خلال سنة 1556م- 1605م . وكان يعقد في بلاطه مجالس علماء جميع الأديان ، ويستمع إلى مباحثاتهم لكي يميل إليه أتباع جميع الأديان .(5)

وقصة السلطان جلال الدين أكبر معروفة للجميع فيما يتعلق بالتسامح ، ولا نظن أننا في حاجة إلى إلقاء مزيد من الضوء . قام السلطان أكبر بترجمة أمهات الكتب في الديانة الهندوسية مثل "مها بهارت" و" رامائن" و" أتهر ويد " إلى اللغة الفارسية ، وأظهر اهتماماً بالغاً بالمساواة بين المسلمين والهندوس في مجال التعليم .(6) كان الهندوس من ضمن المقرّبين إلى السلطان أكبر حيث أهداهم كثيراً من الأراضي والمباني ، وأغدق عليهم العطايا ، ومنحهم المناصب العليا في الدولة حتى وصل بعضهم إلى عضوية مجلس الشورى خلال فترة حكمه . لم يقتصر السلطان أكبر بنكاح الهندوسيات بل تعدّى ذلك إلى حثّ المسلمين على فعل ذلك . واستمرّ أثر الهندوس وقربهم من السلطان يزداد يوماً بعد يوم حتى وصل به الأمر إلى ابتداع ديانة جديدة سمّاها " الدين

الإلهي " . وقد أدّى الاختلاط المكثف بين الهندوس والمسلمين ، والنفوذ المتزايد للهندوس في ديوان السلطان أكبر إلى نتائج سيئة ومهينة للإسلام والمسلمين . ويكفي أن نقول بأنه قد تعدّى كل حدّ في التسامح حتى أنه تجاهل الحفاظ على المبادئ الإسلامية .

ثم تولّى السلطة بعد وفاة جلال الدين محمد أكبر ابنه نور الدين محمد جهانكير (1605-1627) ، وكان من السلاطين الذين اشتهروا بالعدل وفضّ نزاعات الرعية على أسس المساواة . وقلّ أن نجد نظيره في العدل والتسامح ، حيث كان بابه مفتوحاً لكلّ مظلوم ومسكين دون تمييز في دين أو عرق . وقد أمر بتعليق "سلسلة العدل" لمن فشل في الحصول على العدل من قبل مؤسسة القضاء فعليه أن يحرّك سلسلته ، ويصل إليه مباشرة . وكان يستقبل الكهنة والدراوشة الهندوس ويحترمهم مثل استقبال العلماء المسلمين واحترامهم .

ومن ناحية أخرى انتقده الحكام الهندوس كثيراً واتهموه باتهامات مختلفة ، منها : أن السلطان أورنكزيب عالمكير هدم بعض معابدهم واستولى منها على ثروات طائلة . وكل من اطّلع على التاريخ فيرى كلامهم هذا ليس صادقاً في معظمه حيث نجد العديد من الأدلّة التي تثبت أنه كان يأمر عماله وقادته بالشدّة بعدم التعرّض للمعابد والأديرة . وبالرغم من ذلك فإنه إذا وقع بعض الأحداث المشابهة في إحدى الحروب قبل ألف سنة فإن ذلك لا يعني أبداً أن كل السلاطين المغول وحكامهم كانوا يعمدون إلى هدم معابد الهندوس وتحطيم أصنامهم . فهذه أحداث قد تقع أثناء الحرب وخلال الكرّ والفرّ ، لكنها لا يكون وراءها حقد أو عداوة تجاه هذا الدين أو ذاك ، إذ من الممكن جدًّا أن تقع مثل هذه الأحداث في الحروب .

وبعد وفاة نور الدين محمد جهانكير تولّى الحكم شهاب الدين محمد شاهجهان عام 1628م إلى 1658م ، فسدّد ما ارتكبه محمد أكبر من الأخطاء ، وأكّد على اتّباع الشعائر الدينية . وكان يهتمّ بالأمور الدينية أكثر من اهتمام جهانكير، ولا يعني ذلك أنه قضى على كل المخالفات الدينية من الدولة .(7)

تولى محي الدين أورنك زيب عالمكير الحكم بعد وفاة أبيه شاهجهان عام1659م ، وسيطر على شؤون الحكم سيطرة كاملة إلى عام 1707م. ومن أكبر المآثر لأورنكزيب عالمكير ، هو عدله دون تمييز بين الغني والفقير ، والصديق والعدو.

وكتب التاريخ حافلة بأخبار عدله ، وكرمه ، ورعايته للعلم ، وتفقده لأحوال رعيته ، وشجاعته وحزمه ، وتدينه . فقد بلغت الدولة في أيامه أوج تقدّمها وعمرالها نتيجة للعدل الشامل والأمان الكامل اللذين بسطهما في البلاد كلها . أنقذ أورنكزيب عالمكير المجتمع من الفساد والخرافات وشرب الخمر والمقامرة والعادات السيئة والتقاليد اللادينية ، وقضى على كل هذه المفاسد .(8)

ثم جاء بعده عدد من السلاطين ، وسقطت الدولة المغولية بنفي بهادر شاه ظفر في يد الإنكليز عام 1857م .

التسامح الديني :

أما فيما يتعلق بالتسامح الديني ، فإن المغول قد أطلقوا الحرّية الدينية الكاملة لغير المسلمين ؛ إذ أنه بغير هذا لم يكن للدولة أن تقوى وأن ترتقي وتطوّر . وصفحات التاريخ مليئة بأحداث تؤكد لنا أن الهندوس كانوا أحراراً في أمورهم الدينية من كل اعتبار ، فيكتب ضياء الدين برني قائلا :

" كان الهندوس يقومون بتزيين معابدهم وعبادة أصنامهم طبقاً لديانتهم وبكل حرّية . وكانوا يخرجون في تجمّعاتهم يعزفون بالمزامير ويغنّون ويرقصون في مناسباتهم الدينية . وكانت أصوات نواقيسهم وأجراسهم تُسمع داخل القصورالفخمة للسلاطين.(9)

صور التسامح الديني في عصر الدولة المغولية كثيرة بشكل عام . وقد ساهم هذا التسامح بدوره إلى التقريب بين المسلمين والهندوس ، وتقليل المسافات فيما بينهم إضافة إلى ازدهار العلاقات الاجتماعية والتجارية بين الطرفين . ومن هنا استتب الأمن والاستقرار في المملكة الهندية في عصر المغول .

حاول الحكام المغول إخراج الرعية من المجتمع الهندوسي الذي فرّق الناس إلى فئات وطبقات مختلفة وإنشاء مجتمع بديل يتمتع بالأخوة والمحبة المتبادلة ومساواة جميع الفئات في حقوقهم وواجباتهم دون تفريق عنصري أو تمييز طبقي . ودفعت هذه المساواة إلى القرب بين المسلمين والهندوس في ذلك الوقت .

لم يحاول المسلون في فترة حكمهم على الهند أن يقضوا على الحضارة الهندوسية أو أن يهدموا معالمها متمثلين بأخلاق التسامح والحلم الإسلامي ، بل ساهموا في إتاحة الحرية التامة لجميع ديانات وفئات المجتمع . يقول الكابتن هملتون في كتابه عن رحلته إلى مدينة ٹھتھہ ناقلاً أحوال المدينة كما رأى :

" ديانة الإمارة الرسمية هي الإسلام ، ونسبة المسلمين لا تفوق الواحد من عشرة ، ولكن الهندوس يعاملون بالتسامح الديني بشكل كامل " .(10)

هناك وجهتا نظر مختلفتان فيما يتعلّق بالتسامح الديني في عهد الدولة المغولية . أما الأولى فتقول بأن سلاطين المغول قد اشتطُّوا في تعاملهم مع غير المسلمين من ناحية الدين بل وكانوا غير حياديين في هذا الجانب فأوقعوا بهم ظلما وأجبروهم على الدخول في الإسلام أو أداء الجزية . بينما تقول وجهة النظر الثانية أن السلاطين المغول قد اتّسموا برحابة الصدر وغاية التسامح في تعاملهم مع غير المسلمين ، فمنحوهم الحرّيّة المطلقة سواء على الجانب الاجتماعي أو الاقتصادي أو الثقافي . وأنا في واقع الأمر اختلف إلى حدٍّ ما مع هاتين الوجهتين بل إنني أعتقد بأن الحكام المغول لم يكونوا جميعا ظالمين متعصبين وضدّ الحقوق الإنسانية ، كما أنهم أنفسهم لم يكونوا ملتزمين بالشعائر الدينية على الوجه الأكمل . ولدينا في التاريخ أمثلة تدلّنا على أن بعض هؤلاء الحكام والسلاطين قد خالفوا الشريعة الإسلامية في بعض الظروف . ومع ذلك فهناك أمثلة لا حصر لها تشير إلى خضوعهم أمام أحكام الشريعة الإسلامية .

وبهذا الاعتبار فإننا حين نُلقي نظرة عامة على أحداث هذا العصر ، لم نجد ذلك التعصب الديني ولا تلك التفرقة العرقية والكراهية من الطوائف المختلفة والتي سرَت مثل السُّمّ في شرايين القوى العالمية وأوردتها . ورغم أن انتشار الإسلام مرهون بجهود العلماء والمتصوفة الكرام في الهند إلا أن بعض الأتقياء من السلاطين قد شاركوهم في هذه الجهود . فمع تحلّيهم بالشجاعة والرجولة وحبّ العلم والأدب والفنون يتعاطفون مع الرعية فحكموا بذلك قلوبهم .

والأمر فيما يتعلّق بالهند كان مختلفا تمام الاختلاف عما هو في الدُّول الإسلامية في الشرق الأوسط آنذاك حيث كانت الأكثرية في الهند غير مسلمة يحكمهم المسلمون . ثم هناك فروق اجتماعية بناءً على الاختلاف الأبدية بينهما ، تحول دون

الامتزاج والاختلاط بين الشعبين ، حيث كان الهندوس يكرهون المسلمين ويعتبرون أنفسهم أفضل منهم ، وينظرون إليهم على أنهم غير متحضّرين ونجس . ولكن ليس لديهم سبيل إلا أن يصادقوا المسلمين لأنهم كانوا أصحاب الحكم والسّلطة في البلاد . وكان وجود الكَتَبَة الهندوس في أمور الضّرائب يُعدّ ضروريا للغاية .

وعلى الجانب الآخر كان المسلمون يعتقدون بضرورة إقامة علاقات جيّدة مع الهندوس في البلاد حرصاً على قوّة الدولة واستمراريتها ورفاهيتها . وكان السلاطين المسلمون يهتمون كثيرا بأن يضعوا الرجل المناسب في المكان المناسب اعتماداً على كفاءته وأهليته بصرف النظر عن الدين الذي ينتمي إليه . ويخبرنا التاريخ بأسماء وشخصيات هندوسية اعتلت أعلى المناصب في الدولة المغولية .

الهوامش

(1) سالك ، عبد المجيد – مسلم ثقافت هندوستان مين ، اداره ثقافت اسلاميه ، لاهور ، ص:113

(2) چنگيز خان : لقب معناه سلطان المغول ، واسمه تمو چن بن باطور ، ولد جنكيز خان عام 1155م . هو فاتح مغلي ومنشئ امبراطورية المغل العالمية . ويعتبر أكبر محارب مخرب عرفه التاريخ . كان يطلق على الشعب الذي هزّ بفتوحاته أركان الدول جميعاً اسم التتار .

(3) گلبدن بيگم – همايون نامه، سنگ ميل پبليكيشنز لاهور ، 1998م ، ص : 45

(4) بدايوني ، عبد القادر – منتخب التواريخ، نقله إلى الأردية : احتشام الدين ، مطبعة نولكشور ، لكهنؤ .1889م ، ص : 233

(5) محمد ميان – علماء هند كا شاندار ماضي، مكتبه رشيديه ، كراتشي ، 1991م ، ص:15

(6) مسلم ثقافت هندوستان مين، ص : 218

(7) اكرام ، شيخ محمد – رود كوثر ، اداره ثقافت اسلاميه ، لاهور ، 1997م. ، ص : 423

(8) سعيد أحمد – مسلمانون كا عروج و زوال، اداره اسلاميات اناركلى ، لاهور،ص : 332

(9) برني ، ضياء الدين – تاريخ فيروز شاهي، كلكته، ص : 106، 216، 587-588

(10) زين العابدين ، مفتى و شهابى ، انتظام الله – تاريخ ملّت، اداره اسلاميات ، لاهور ،727/3